فكاهات

الكولونيل جيرار [1]

— ٦ —

وعاد الكولونيل جيرار الى حديثهِ في الجيش فقال

قد اخبرتكم كثيراً من الحوادث التي حصلت لي ولكن لا اظنني قصصت عليكم كيفية التحاقي بفرقة الهوسار وما اجريتهُ في ذلك الحين في حصار سيراقوسة فاذا لم اتلُ عليكم هذه القصة فكأنني لم اخبركم شيئاً فاسمعوا لي باصغآء لانهُ لا يوجد من يعرف هذا التاريخ الا اثنان او ثلاثة من اصدقآئي

كنت في بدآءة امري ملازماً اول في فرقة شمبران وكان لي من العمر خمس وعشرون سنة ولكن كان لي قلبٌ لا يهاب الموت ونفس لا تعرف الخوف . وحدث ان هدأت الحرب التي كنا فيها في المانيا وكانت لا تزال تهيج براكينها في اسبانيا فاراد الامبراطور ان يرسل نجدةً الى ساحة القتال فرقاني الى رتبة قائد مئةٍ وامرني بالالحاق بفرقة الهوسار وكانت في ذلك الحين تابعة لكتيبة الجيش الخامسة تحت قيادة المارشال لانّ . فلما تلقيت اوامر الامبراطور امتطيت صهوة جوادي في برلين ووجهت رأسهُ جهة البيريني فلم اضيّع ساعةً سدى وجعلت اصل السير بالسرى حتى بلغت جيش المارشال لانّ وهو محاصر مدينة سيراقوسة ودخلت معسكر فرقة الهوسار التي تعينت فيها . وقد كانت حالة الحصار هناك من اصعب ما يتصور لان المدينة كانت مشحونة بالاسبانيول من جنود وكهنة وغيرهم وقد صمموا جميعهم على ان يتجرعوا كؤوس الموت ولا يسلموا . ولم تكن المدينة ذات سور او حصن واحد

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

بل كانت جميع مساكنها واديارها قلاعاً منيعة وحصوناً راسية ضخمة الجدران كانها الباستيل فلم يكن لنا بدّ ان نحاصر كل بيتٍ على حدةٍ

ولما كانت الفرسان قليلة الفائدة في اوقات الحصار فقد كانت فرقة الهوسار موكلة بحراسة جنوبي المدينة لتمنع وصول نجدات الاسبانيول اليها . اما كولونيل تلك الفرقة فلم يكن جندياً مدرباً كما يجب ولذلك كانت الفرقة مختلة النظام ولم يكن فيها شيء من الترتيب والجمال والابهة التي صارت اليها بعد ما توليت قيادتها انا . وفي مساء وصولي تناولت العشآء مع ضباط الفرقة وكانوا ستة وعشرين ضابطاً فلم اتمالك ان كلمتهم بحرّية وانتقدت عدم تدريبهم وذكرت لهم البون الشاسع بين نظامهم ونظام الفرقة التي تركتها في المانيا . ومعلوم ان الحقيقة تجرح فلما سمعوا ذلك مني ظهر على وجوههم الغيظ ورأيتهم يتغامزون عليّ ولا سيما الكولونيل وضابطٌ آخر يقال لهُ اوليفياي كانوا يدعونهُ جليات الفرقة . ولما فرغنا من الطعام قام الكولونيل وبعض الضباط الى غرفةٍ اخرى وبقي منا نحو الاثني عشر وكان امامنا قربة من الخمر الاسبانيولية فجلسنا نشرب ونتسامر وكان الضابط اوليفياي يسألني عن الجنود في المانيا وعن اعمالي حين كنت هناك . فلما رأيت منهم الاصغآء التام دفعتني الحماسة مع ما دار في رأسي من نشوة الشراب فجعلت اقص عليهم ما قمت به من الاعمال المجيدة التي فعلتها مما برهن لهم انني امهر من امتشق حساماً وانني لا ابارَى في ركوب الخيل ولا اعرف للخوف معنى . وكنت مستغرقاً في الحديث فلم اشاهد لاول وهلة ما ارتسم على اوجه رفاقي من العلامات التي دلتني على انهم لم يكونوا يجهلونني فقط ولكنهم صاروا يكرهونني كراهةً شديدة . وكان يجب عليّ اذ ذاك ان اعرّفهم بنفسي انني لست ضابطاً كالضباط بل انني جيرار الشهير بطل راتسبون وفاتح جينا ومشتّت شمل المربّع في استرلتز ولكنني لم اشأ ان امدح نفسي امامهم بهذه الصراحة بل جعلت اتلو عليهم من اخبار وقائعي ما يجعلهم يعرفون تلك الحقيقة بانفسهم واخبرتهم عن قيادتي الجيش وقت عبور نهر الدانوب . وما بلغت هذا الحد حتى قهقهوا جميعاً بضحك اصمَّ اذنيّ ثم التفت اوليفياي الى ضابط آخر وقال لهُ

سائلاً هل في معلومك ان المارشال لانّ باقٍ في المعسكر . قال اظنهُ باقياً فيهِ . فقال اوليڤياي يا للعجب واي لزوم لبقآئهِ هنا بعد وصول حضرة الملازم جيرار . فاجابهُ الجميع بضحك عالٍ اوقد فيَّ نار الحدة والانفة فوقفت امامهم كمثال الانتقام ثم التفتُّ الى اوليڤياي فقلت هل لك ان تخبرني يا سيدي في اية ساعة يتم عرض الفرقة كل صباح . فقال هازئاً عسى ان لا يكون في فكرك ان تغير اوقاتنا عما هي يا حضرة الملازم جيرار . فقابلهُ الجميع بضحك الاستحسان ولكنهُ لم يطل ضحكهم عند ما رأوا هيئتي الجدّيّة ، فحولت نظري الى ضابطٍ آخر وسألتهُ نفس السؤال وكأنهُ اراد ان يجيبني بسخريةٍ اخرى فمنعهُ ما رآهُ في وجهي وقال في الساعة السادسة ايها الرفيق . فشكرتهُ بلطف وقد جال في خاطري ان انازلهم جميعاً في الغد بعد الفراغ من العرض وعددتهم فوجدتهم اثني عشر ضابطاً فحدجتهم جميعاً بنظرٍ احدّ من نظر النسر وخاطبتهم قائلاً انني لا اكون فرنسويًّا ولا استحق الانضمام الى فرقتكم هذه ان لم احاسبكم افراداً واجمالاً على القحة والفظاظة التي قابلتموني بها كما انكم لا تكونون انتم فرنسويين ولا تستحقون ان تدعوا رجالاً اذا رفضتم طلبي . فقال اوليڤياي لابد من اجابتك يا هذا فانا مستعد لمبارزتك عن نفسي و باسم ضباط الهوسار الموجودين هنا . فقلت اشكرك يا مولاي ولكن لابد من مناقشة الحساب لهؤلآء الباقين ايضاً الذين كان لهم النصيب الاكبر في الازدرآء بي فلابد من مبارزة الجميع ليؤدي كل واحدٍ حساباً عن نفسهِ . ولما قلت هذا بدت علامات التبسم على وجوههم ثم انزووا الى جانب الغرفة فسمعتهم يتكلمون فيما بينهم كلاماً لم استوضحهُ ثم عادوا اليَّ فقال اوليڤياي قد اتفقنا على اعطآئك سؤلك وتركنا لك الخيار في تعيين السلاح ووقت المبارزة وسائر شروطها . قلت اما المبارزة فبالسيف واما الوقت ففي الساعة الخامسة من صباح الغد واخصص لكل منكم خمس دقائق فلا تصير الساعة السادسة حتى اكون قد انهيت عملي معكم في الوقت الموافق لميعاد العرض . واما مكان المبارزة فاتركهُ لكم فانني لا ازال غريباً عن هذه الديار لا اعرف الامكنة الموافقة فيها . وكانت كلماتي الصادرة عن تأثرٍ وبرود قد نبهتهم الى ان جيرار لم يكن لعبةً في ايديهم

فامسكوا عن الضحك وبانت عليهم دلائل الاهتمام . فقال اوليفياي ان في آخر هذا الشارع حديقة مسوَّرة غير مطروقة كثيراً واظنها في غاية الملاءمة فغداً في الساعة الخامسة صباحاً ننتظرك فيها يا حضرة الرفيق . فحاولت ان اجيبهُ شاكراً واخبرهُ انهم سيأتون لموافاتي لا لانتظاري ولكن قبل ان انطق باول كلمة فُتح باب الغرفة فجأة وظهر منهُ الكولونيل مذعوراً مصفرًا فقال ايها الشجعان يلزمني من بينكم متطوعٌ ارسلهُ في مهمة سرية مخوفة باشد الاخطار الممكنة فمن يتطوع منكم لاقتحام هذا الخطر بشرط ان لا يكون متزوجاً . وما اتم كلامهُ حتى تقدم كل الضباط غير المتزوجين فنظر اليهم الكولونيل بحيرةٍ لم تخفَ عليَّ لانني قرأت افكارهُ فعلمت انهُ يود ارسال احدٍ فيهم وفي نفس الوقت يود ابقاء الاهم فيهم بقربهِ . فنهضت اذ ذاك وقلت اسمح لي يا مولاي ان اقدم نفسي لهذه المهمة فانها حقٌّ لي لانني الاقدم بين قواد المئة في الفرقة وانا اولى بها من غيري لانني لا ازال غريباً عنكم ولا يهم الفرقة غيابي . فانفرجت اسرَّة الكولونيل وقال متبسماً لقد اصبت كبد الحقيقة يا عزيزي جيرار فتعالَ معي لاعطيك المعلومات اللازمة . وقبل ان اخرج نظرت الى الضباط وقلت لهم انني لا ازال على وعدي من مقابلتهم في الصباح ثم خرجت وقد رأيت في وجوههم تغيراً يدل على انهم ابتدأوا يقدروني حق قدري . وخرج الكولونيل فسار امامي وانا اتبعهُ حتى اجتزنا المعسكر ولم نزل سائرين مسافة طويلة حتى بلغنا آخر الحدود الواقف فيها حرس فرقتنا فقادني الكولونيل الى منزلٍ قد تهدمت بعض جدرانهِ ثم رقي بي الى سطحهِ فوجدت امامنا رجلين بين يديهما طبلٌ عليهِ خريطة كبيرة وهما جاثيان امامها يفحصانها على نور مصباح ضعيف . وكان احدهما حليق اللحية مدمج العضل عرفتهُ للحال انهُ المارشال لانّ اما الآخر فكان الجنرال رازو رئيس المهندسين . فلما صرنا امامهما قال الكولونيل مخاطباً المارشال قد تطوَّع القائد جيرار لقضاء المهمة التي تريدها يا مولاي وها هو . فانتصب المارشال باسماً ثم اخذ يدي مصافحاً وقال اهنئك ايها الصديق على شجاعتك وهمتك ودليلاً على معرفتي قدر هذه الشجاعة فيك اهدي لك هذه الزجاجة المحتوية على سائلٍ اذا

شربت منهُ نقطة واحدة تموت للحال وربما يلزمك في السفرة التي سأوجهك فيها . ولم تكن هذه التحية مما انتظر سماعهُ فشعرت برجفةٍ في اعضآئي وان شعري قد وقف على رأسي ولكنني تجلدت وقلت اسمح لي يا مولاي ببيان المهمة التي تروم مني قضآءها لانني لم اعلم ما هي بعد . فدهش المارشال وقال للكولونيل وكيف اتيت بهِ اذاً وهو يجهل ما يطلب منهُ والمخاطر التي تتهدد حياتهُ . فقاطعتــهُ قائلاً انهُ مهما عظمت الاخطار عظم المجد والشرف فلا ارجع عن تطوعي الا اذا رأيت رسالتي سهلةً لاخطر فيها . فنظر اليَّ نظرةً دلت على اعتبارهِ العظيم لي وتقديرهِ شجاعتي ثم التفت الى الجنرال رازو وقال لهُ تكرم باعلام جيرار ما يطلب منهُ . فنهض الجنرال وقادني بيدي الى الباب ثم اشار الى سورٍ بعيد وقال هذا السور هو خط دفاع الاعدآء وهو سور دير العذرآء فاذا تمكنا من اختراق هذا السور انتهى عملنا وفزنا بالنصر العاجل غير ان الجدران كثيفة لا تؤثر فيها مدافعنا وهي محاطة بالغامٍ يصعب اجتيازها ولكننا علمنا انهُ يوجد في اسفل السور مخازن بارود فاذا تمكنا من اشعالها نابت عنا في هدم السور من اساسهِ وفتحت لنا طريقاً لدخول المدينة . ولا اخفي عنك انهُ يوجد لنا صديقٌ في المدينة يدعى هوبرت وعدنا باشعال تلك المخازن ونحن في انتظارهِ منذ يومين والى الآن لم يتمم وعدهُ ولا بلغنا من جهتهِ شيء جديد ولا نستطيع القيــام بعملٍ ما قبل ان نعلم ما حل بهِ تماماً . وهذه خريطة المدينة مفصلةً ترى فيها عدة اديارٍ بينها شوارع متفرعة من ساحة عمومية فاذا بلغت تلك الساحة تجد كنيسة الى يمناك على ناحية شارع يدعى توليدو ومتى دخلت ذاك الشارع تجد فيهِ مخزناً للالبسة وبجانبهِ بائع خمر وبينهما بيت صغير يسكنهُ هوبرت . فالذي يُطلب منك الآن هو ان تصل الى البيت المذكور وتقابل هوبرت وتعلم منهُ هل هو باقٍ على وعدهِ اولا . وقد احضرنا لك هذا اللباس وهو لباس راهب فرنسيسكاني فستراهُ احسن طريقة تتنكر بها فلا يشك فيك احد

اما انا فكنت اسمع باصغآء وسرور حتى سمعت كلمة التنكر فانقلبت سحنتي وقلت كلا يا مولاي لا اتنكر لانني لست جاسوساً ولكن اذهب بلباسي العسكري .

فقال ضاحكاً اعلم يا هذا انهُ يستحيل عليك اجتياز شوارع المدينة بغير تنكر لان الاسبانيول لا يرضون لاسراهم بالاسر فقط بل يذيقونهم اصناف البلآء والتنكيل حالما يقبضون عليهم . وبعد مباحثة قليلة اقنعني الجنرال فلبست ثياب الراهب وقلت لهُ هآءنذا مستعدٌّ للرحيل . قال وهل معك سلاح . قلت معي سيفي . قال ربما سمعوا قعقعتهُ اورأوهُ فاتركهُ واستعض عنهُ بهذا الخنجر وستقابل حال خروجك جنديًّا يريك الطريق التي تسير فيها لتبلغ السور بدون تأخير فاذهب مزوداً بدعآئنا ان ينجح الله مسعاك

فخرجت وقابلت الجندي ثم نزعت قبعتي واخفيت رأسي تحت قبعة ثوب الراهب وحبكت ازرارهُ وسرت ورآء قائدي بحذرٍ وانتباه . ولم نزل ننسلّ بين الخرَب على جانب السور الى ان بلغنا شجرة كبيرة محاذيةً لهُ فوقف الدليل وقال تسلق هذه الشجرة ايها الرفيق ومتى بلغت اعلاها تجد غصناً اذا تدليت منهُ تبلغ سطح هذا البيت الذي على السور فمتى وصلت اليهِ فاعتمد على ملكك الحارس في ما بقي عليك لانهُ يستحيل عليَّ ان ارافقك اكثر . فلففت ثوبي عليَّ وتسلقت الشجرة حتى قاربت اعلاها ولم يبقَ عليَّ الا خطوة واحدة لابلغ السطح فقرع اذنيَّ صوت وقع اقدام فالتصقت بالغصن واجتهدت ان اخفي نفسي بظلهِ لان القمر كان في ربعهِ الاول ورأيت بعد التحديق رجلاً يقترب على السطح ببطءٍ وحذر وبيدهِ بندقية مصوبة وكان يقف من وقت الى آخر ويصغي بتأنٍّ الى ان بلغ طرف السطح على بعد بضع خطوات مني فرأيتهُ قد جثا ثم صوب بندقيتهُ واطلقها . فمرّت الرصاصة بالقرب مني ثم سمعت انيناً فعلمت ان الذي اصيب لم يكن الا دليلي وكان قد بقي ليرى ماذا سيحدث لي فرآهُ الحارس ورماهُ بالرصاص . ثم رأيت الحارس يختلس النظر الى اسفل وبعد ان التفت يميناً وشمالاً ولم يرَ احداً وضع بندقيتهُ على الارض واقترب من الشجرة يريد النزول فعلمت انهُ راغبٌ في الوصول الى الدليل اما ليجهز عليهِ او يسلب ما ربما يجدهُ في جيوبهِ . ولكنهُ ما كاد يبلغ الغصن المستند انا عليهِ حتى اغمدت خنجري في صدرهِ فهوى الى الارض وكان لسقوطهِ صوتٌ

عظيم بين الاغصان الملتفة . ومنعني الظلام من مشاهدة ما حصل غير انني سمعت بعض كلمات فرنسوية من دليلي عرفت منها انهُ لم يطل انتظارهُ للانتقام من عدوه . اما انا فبقيت بضع دقائق لا اجسر على الحركة مخافة ان يكون صوت سقوط الحارس قد نبه احداً ولما تيقنت السكون التام وثبت الى سطح البيت واخذت اهتم بوجود طريقةٍ اتمكن بها من الوصول الى داخل المدينة . فخطر لي ان ابحث عن الطريق التي اتى منها الحارس وقبل ان انقل قدمي رأيت باباً خفيًّا اشبه بالفخ قد فتح في سطح البيت وظهر لي منهُ وجه رجل يغطيهِ الشعر الكثيف وكان ينادي الحارس باسم مانولو ولما لم يجبهُ احد صعد الى السطح وتبعهُ ثلاثة مثلهُ وجميعهم مدججون بالسلاح . اما انا فانزويت قرب الحائط حيث يسترني الظلام وجعلت اراقب حركاتهم فبعد ان اعادوا النداء للحارس ولم يكن مجيب قال احدهم لا بد انهُ ذهب الى المركز الاخر ثم اتجهوا الى تلك الناحية . فما صدقت ان ابتعدوا حتى اقتربت من ذلك الباب بمزيد الاحتراس فوجدت سلماً نزلتهُ وانا اكاد امنع تنفسي فوجدت البيت خالياً خاوياً وبلغت بابهُ فخرجت منهُ الى زقاقٍ مقفرٍ فسرت فيهِ ايضاً حتى بلغت الشارع فرأيت فيهِ نيراناً موقدة وحول كل نار عدد من الاشخاص يصطلون او يأكلون ووجدت عدداً من الرهبان يجولون بين تلك الجموع . فتشجعت وسرت نظيرهم حتى انتهيت الى الساحة العمومية فوجدتها مكتظة بالجنود وقد كثر في جهاتها ايقاد النيران فلم التفت يميناً ولا شمالاً حتى اجتزت الكنيسة وسرت في الشارع الذي وُصف لي حتى وصلت الى مخزن الالبسة ودكان بائع الخمر ووجدت بينهما البيت الذي قيل لي عنهُ ولكن كان بابهُ مقفلاً ولا نور فيهِ . فدفعت الباب بلطفٍ واحتراسٍ زائد فانفتح ولم اكن اعلم ما سأصادفهُ فيهِ غير انهُ لم يكن لي بد من دخولهِ فخاطرت بنفسي ودخلت . وكانت تخيم في الداخل ظلمة حالكة السواد زادت عند ما اقفلت الباب ورآئي فجعلت اتلمس طريقي حتى وقعت يدي على طرف مائدة فاستندت اليها واخذت اناجي نفسي في كيفية الوصول الى مقابلة هوبرت لانني علمت ان اقل غلطةٍ ارتكبها يكون فيها خسارة حياتي

وضياع المقصود من رسالتي . واذ ذاك سمعتُ صوتاً بالقرب مني يقول بتنهدٍ يجرح الفؤاد « آه يا الهي » فجمد الدم في عروقي ولا سيما وان تلك الكلمات قيلت باللغة الفرنسوية فاستنجدت قواي وهمستُ في الظلام قائلاً مَن انت يا هذا ألعلك هوبرت . فاجاب بصوت ضعيف نعم انا هو فالماء الماء بربك هات لي قليلاً من الماء . واقتربت من الجهة التي اتى منها الصوت فبلغت الحائط ولم اعثر على احد . ثم انتبهت الى تنهدٍ ثانٍ منهُ فتحققت ان الصوت فوق رأسي فرفعت يدي واخذت اتلمس في الظلمة حتى وقعت يدي على رجلٍ عارية على علوٍ يؤازي قامتي . فوقف شعر رأسي واخرجت من جيبي ثقاباً اوقدتهُ فوقعت عيني على منظر ارعد فرائصي وسقط الثقاب الى الارض فانطفأ . وبعد قليل ملكت روعي فاوقدت ثقاباً آخر وتأملت في المسكين هوبرت وكان مسمَّراً على الحائط كما تسمر التماسيح على ابواب البيوت وقد أُدخلت شظايا الحديد الثخين في يديهِ ورجليهِ وكان على آخر رمق فسقط رأسهُ على كتفهِ . وكان المهُ من العطش اكثر من تألمهِ من الجراح ولزيادة عذابهِ وضع اولئك القساة زجاجة خمر على المائدة امامهُ وهو على تلك الحال فتناولتها لفوري وجرّعتهُ منها بقدر استطاعتهِ فعاد الى عينيهِ شيءٌ من النور وتمكن من الكلام فقال هل انت فرنسوي . قلت نعم وموفدٌ للسؤال عنك والبحث عما جرى لك . فقال بتأسفٍ قد انكشف امري لاولئك الملاعين ففعلوا بي ما ترى ولكن اسمع لاخبرك قبل انقضاء اجلي بما تهمك معرفتهُ . ان البارود مخزون في غرفة رئيسة دير الراهبات غير ان الجدار مثقوب وتتصل نهايتهُ بغرفة الاخت أنجلا قرب الكنيسة . والآن فان آلامي لا تطاق ولا امل في نجاتي فارغب اليك بل استحلفك ان تغمد خنجرك في صدري وتريحني من هذا العذاب

ورأيت المسكين حقيقةً في النزع الاخير وان احسن ما يفعل لهُ هو تقصير مدة آلامهِ فوددت ان اجيب طلبهُ فلم تطاوعني يدي ثم تذكرت زجاجة السم التي اعطانيها المارشال لانّ فأخذتها للحال وافرغت منها شيئاً في قدح الخمر وقبل ان اناولهُ للمسكين هوبرت سمعت قعقعة سلاح خارج الغرفة فتركت القدح ووثبت

الى نافذة في الغرفة مغطاة بالستائر الثقيلة فاختفيت ورآءها . وفي اللحظة التالية دخل جنديان من الاسبانيول ببنادقهما وبيد احدهما مصباح . وكنت اراقبهما من خلل الستائر فلاحظت انهما اتيا ليجهزا على المسكين أو ليزيدا في آلامهِ فكانا ينظران اليهِ ويتبسمان تبسماً شيطانيًّا . ثم وقع نظر احدهما على قدح الخمر فأخذهُ بيدهِ وقدمهُ الى هوبرت فمد ذاك رأسهُ ليبتلع منهُ شيئاً فاعادهُ الجندي اليهِ ساخراً بهِ وابتلع منه قليلاً فما استقر في جوفهِ المشروب حتى صرخ صراخاً شديداً وتشنجت اعصابهُ فسقط الى الارض ميتاً . ورأى رفيقهُ ذلك فكاد يموت معهُ من الخوف واصابتهُ نوبة جنون فكان يصرخ ويجري حتى خرج لا يلوي على شيء . وخرجت من مخبإي على نور المصباح الذي تركهُ الجنديان فوجدت ان هوبرت ايضاً قد فاضت روحهُ فخرجت الى الشارع وانا كالمأخوذ فلم انتبه الى نفسي حتى قرعت ساعة الكنيسة ضربتين فعلمت اني بجانبها وانهُ لم يبقَ لي الا ساعتان للعمل

وكانت الكنيسة منارة وفيها جموع تدخل وتخرج فدخلت عالماً ان لا احد ينتبه اليّ فأنفرد هناك لاجمع قواي العقلية واتبصر في ما يجب عملهُ . ولما دخلت وجدت ان الكنيسة قد تحولت الى مستشفى ملآن بالجرحى والمرضى وكلٌّ مشغول بنفسهِ ورأيت البعض جاثين يصلون فجثوت بالقرب منهم وتضرعت الى القادر على كل شيء ان يقويني على القيام بما فرض عليَّ لكي اشهر اسمي في اسبانيا كما اشتهر في المانيا . وبقيت على تلك الحالة الى ان قرعت الساعة ثلاثاً فخرجت وتوجهت الى دير الراهبات . وكان يمكنني الرجوع الى المعسكر لأعلم المارشال ان هوبرت قد مات واتركهُ يفكر في طريقة اخرى لافتتاح المدينة ولكن جيرار لا يقف عند الخطر ولا يترك عملاً قبل اتمامهِ فصممت ان اقوم انا بما نوى هوبرت ان يقوم بهِ

وسرت بدون معارضة حتى بلغت الدير وكان مبنيًّا في وسط حديقة فسيحة ملأى بالجنود المسلحين ولديهم آلات الدفاع بتمامها ولذلك لم يكن دخول الدير بالامر السهل فسرت حول الحديقة حتى بلغت نافذةً زجاجها ملوَّن وعليها رسوم علمت للحال انها نافذة الكنيسة . وكنت قد علمت من هوبرت ان غرفة الرئيسة

المخزون فيها البارود بقرب الكنيسة وان الثقب الممكن الوصول منهُ في الغرفة المحاذية فصار من اللازم ان ادخل الدير باية طريقة كانت . ورأيت حارساً على الباب فعلمت انه لا بد ان يسألني عن غرضي من الدخول ثم وقع نظري على بئر في وسط الحديقة وبقربها دلآء فاسرعت وملأت منها دلوين حملتهما بيديَّ ودخلت بشجاعةٍ فلم يكلمني الحارس وفتح لي طريقاً سرت فيهِ في دار مبلطة متجهاً نحو الكنيسة . ولما بلغت آخر الممرّ رأيت غرفةً عرفتها انها مخزن البارود لاني رأيت امام بابها كمية من البارود مبعثرة على الارض . اما الباب فكان مغلقاً وعليهِ اثنان يحرسانهِ شرسا الهيئة لم ارَ افظع من منظرهما . وتقدمت الى الامام فرأيت غرفة اخرى ظننتها غرفة الراهبة أنجلا ووجدت بابها مفتوحاً فتركت الدلوين على الارض ودخلت الغرفة فرأيت في صدرها مذبحاً قد جثت امامهُ ثلاث من الراهبات . فلما شعرنَ بدخولي نهضنَ ونظرن اليَّ كمن يطلب الايضاح . ولم تفارقني سرعة الخاطر قطّ فخطر لي ان هؤلآء لم يتركنَ الدير مع ما هو فيه من الخطر الشديد الا لانهنَّ مأمورات وانهنَّ ينتظرنَ امراً ليخرجنَ فاشرت اليهنَّ ان يتبعنني وسرت امامهن الى جهة الباب . اما الرئيسة فحاولت ان تستوضح الامر ببعض الاسئلة فلم اجبها واظهرت علامات الضجر والقلق واشرت اليهنَّ ثانيةً بوجوب الاسراع في اتباعي . ولما رأينَ ذلك مني سرنَ في اثري فقدتهنَّ الى الكنيسة الى الجهة القصوى من مخزن البارود وتركتهنَّ امام المذبح وعدت وقلبي يخفق سروراً وقد تحققت نجاح مسعاي وزوال كل ما يمكن ان يعترض في سبيل مقصدي

خذوا ايها الاصحاب هذا الدرس مني واياكم التهاون بأصغر الامور . فانني لما تركت الراهبات وعدت نظرت فاذا بالرئيسة تتبعني بنظر حادٍّ يدل على الشك والظن وتتبعت نظرها فرأيتها تتقلهُ من قطرتي دمٍ كانتا على يدي اليمنى من دم الحارس الذي طعنتهُ في الشجرة الى خاتم ثمين كان في يدي اليسرى وكانت القوانين تقضي بأن لا يلبس الرهبان شيئاً من الحلى . ولم يخفَ عليَّ ظن الرئيسة ولا سيما عند ما رأيتها تتبعني فأسرعت ركضاً الى ان بلغت باب الكنيسة وولجت منهُ

الممرّ فلما لم تستطع اللحاق بي صاحت بالحرس فهبوا على صوتها ولما رأيتهم جعلت اصيح مثلها واشير الى ممرٍّ آخر ولم اترك لهم فرصةً للاستفهام فاندفعوا بأجمعهم الى ذلك الممرّ واغتنمت الفرصة فدخلت الغرفة واقفلت بابها من الداخل وقد اصبحت في حصن منيع . وحاول القوم فتح الباب بعد ان اخبرتهم رئيسة الدير بظنها بي فلم يستطيعوا واطلق بعضهم بنادقهم على الباب فاخترقهُ الرصاص ولكن بدون جدوى . اما انا فكان اهتمامي بالاهتداء الى الثقب الذي قال لي عنهُ هوبرت وكنت قد فهمت منهُ ان في هذا الثقب بارودًا يتصل بشكل خيطٍ دقيق حتى يصل الى مخزن البارود فاذا اشعل اتصلت النار بالمخزن وانفجر . فبحثت في الغرفة وزواياها فلم اعثر على شيء وكاد يدركني اليأس واخيراً حانت مني التفاتة فرأيت تمثالاً لبعض القديسين محاطة قاعدتهُ بالزهور الصناعية فاقتربت منهُ وفرقت تلك الزهور ولا تسلوا عن سروري حين رأيت البارود مذرورًا شبه خيط دقيق الى ان يبلغ ثقباً ورآء التمثال وبأسرع من لمح البصر تناولت شمعةً موقدة كانت امام التمثال فأدنيتها من البارود والقيت بنفسي الى الارض . فلم تكن لحظةٌ حتى سمعت قصفاً كقصف الرعود وشعرت بارتجاج الجدران وسقوط السقف وبلغ اذني بعد هنيهةٍ عويل الاسبانيول وهتاف الجيوش الفرنسوية ثم غبت عن الوجود

. . . . . .

ولما افقت وجدت نفسي بين جنديين فرنسويين يعتنيان بي فشددت عزيمتي ولم اكن اصدق اني لا ازال حيًّا . وقد وجدت ان انفجار البارود لم يؤثر كثيراً في جدران الدير الضخمة بل زعزعها واوقع شيئاً منها ومن السقوف فقط غير ان هول الانفجار ألقى الرعب في قلوب الاسبانيول فتركوا اماكنهم ولاذوا بالفرار ودخلت جيوشنا الفرنسوية بدون مقاومة تذكر . ثم سرت مع رفيقيَّ ولما بلغت باب الدير وجدت المارشال لانّ داخلاً فصافحني بسرور وسمع حديثي باصغاء واعجاب فلما انتهيت قال احسنت يا جيرار وسأخبر الامبراطور بكل ذلك . قلت لا تنسَ يا مولاي انني لم اقم الا باتمام ما بدأ بهِ هوبرت . قال وسوف لا ننسى جميل هذا

الرجل الذي مات من اجل فرنسا . والآن فانك لابد ان تكون جائعاً وسأتناول طعام الصباح مع اركان حربي في ساحة المدينة فادعوك لتشرفنا بحضورك . قلت اشكرك يا مولاي لكن ارجو ان تسمح لي بغيبة قصيرة ثم اتبعك . قال وما يمنعك من اتباعي الان . قلت لا بد لي من مقابلة ضباط فرقتي الساعة وسأتبعك حالاً بعد مشاهدتهم . قال حسنٌ فلا تطل الغياب . وما سمعت كلمتهُ هذه حتى اسرعت فخرجت من باب السور وتوجهت توًّا الى غرفتي في الفرقة فنزعت ثوب الراهب وامتشقت سيفي واسرعت كما انا الى المحل المعين للمبارزة فوجدت الاثني عشر ضابطاً بانتظاري وقد وقفوا صفًّا واحداً . فلما اقتربت منهم ورأوا وجهي المسودّ من دخان البارود والدماء التي سالت من بعض جراح خفيفة في وجهي وجسمي لا شك انهم ندموا على تصرفهم في الليلة السابقة . اما انا فالقيت عليهم السلام واعتذرت عن تأخري بضع دقائق بحكم الوقت والمهمة التي قضيتها ورأيت انهم يخفون عني شيئاً لم اعرفهُ . ثم قلت لهم انني اتوسل اليكم ان تمنحوني طلبةً واحدة لانني لا اقدر ان اتأخر كثيراً فقد دعاني المارشال لتناول الطعام معهُ فلا ينبغي ان ينتظرني كثيراً . فقال اوليفياي وما الذي تطلبهُ . قلت كنت وعدتكم ان اخصص خمس دقائق لمبارزة كل منكم اما الان فاودّ ان تلقوني جميعاً دفعةً واحدة . ولما قلت هذا اخذت موقف الدفاع ورفعت سيفي منتظراً هجومهم . ولكن ما كان اشد تلك الساعة على عواطفي لانني رأيتهم عوضاً عن مهاجمتي قد وقفوا الوقفة العسكرية وبصوتٍ واحد اخرجوا سيوفهم ورفعوها لي امام وجوههم بالتحية العسكرية . فلما رأيت ذلك رجعت خطوتين الى الورآء مدهوشاً وانا لا اكاد اصدق نظري ثم رميت سيفي الى الارض وقلت ايها الرفاق الاعزآء . . . . ومنعتني عبرات التأثر عن اتمام الكلام . فوثب اوليفياي وصافحني وضمني الى صدرهِ ثم هجم الباقون فاخذ بعضهم رأسي وغيرهُ يدي فما كنت ارى الا وجوهاً تنظر اليَّ بحبٍ واعجاب وألسنةً تعتذر اليَّ وتشكرني وهكذا كان دخولي في فرقة الهوسار وامتلاكي قلوب رجالها